لما قرأ رسول ا A على قريش " إنكم وما تعبدون من دون ا حصب جهنم " الأنبياء : 98 ، امتعضوا من ذلك امتعاضا شديدا فقال عبد ا بن الزبعري : يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال : خصمتك ورب الكعبة ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثنى عليه خيرا وعلى أمه وقد علمت أن النصارى يعبدونهما . وعزير يعبد . والملائكة يعبدون فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت النبي A فأنزل ا تعالى : " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى " ونزلت هذه الآية . والمعنى : ولما ضرب عبد ا بن الزبعري عيسى ابن مريم مثلا وجادل رسول ا A بعبادة النصارى إياه " إذا قومك " قريش من هذا المثل " يصدون " ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وجزلا وضحكا بما سمعوا منه من إسكات رسول ا في بجدله كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا تعيوا بحجة ثم فتحت عليهم . وأما من قرأ يصدون بالضم فمن الصدود أي : من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه . وقيل : من الصديد وهو الجلبة وأنهما لغتان نحو : يعكف ويعكف ونظائر لهما " وقالوا أآلهتنا خير أم هو " يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى إذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينا " ما ضربوه " أي ما ضربوا هذا المثل " لك إلا جدلا " إلا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لطلب الميز بين الحق والباطل " بل هم قوم خصمون " لد شداد الخصومة دأبهم اللجاج كقوله تعالى : " قوما لدا " مريم : 97 ، وذلك أن قوله تعالى : " إنكم وما تعبدون من دون ا " الأنبياء : 98 ، ما أريد به إلا الأصنام وكذلك قوله عليه السلام : " هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم " إنما قصد به الأصنام ومحال أن يقصد به الأنبياء والملائكة إلا أن ابن الزبعري بخبه وخداعه وخبث دخلته لما رأى كلام ا ورسوله محتملا لفظه وجه العموم مع علمه بأن المراد به أصنامهم لا غير وجد للحيلة مساغا فصرف معناه إلى الشمول والإحاط بكل معبود غير ا على طريقة المحك والجدال وحب المغالبة والمكابرة وتوقح في ذلك فتوقر رسول ا A حتى أجاب عنه ربه : " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى " الأنبياء : 101 ، فدل به على أن الآية خاصة في الأصنام على أن ظاهر قوله : " وما تعبدون " لغير العقلاء . وقيل : لما سمعوا قوله تعالى : " إن مثل عيسى عند ا كمثل آدم " آل عمران : 59 ، قالوا : نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آداميا ونحن نعبد الملائكة فنزلت . وقوله : " أآلهتنا خير أم هو " على هذا القول : تفضيل لآلهتهم على عيسى لأن المراد بهم الملائكة وما ضربوه لك إلا جدلا . معناه : وما قالوا هذا القول يعني : ءآلهتنا خير أم هو . إلا للجدال وقرئ : أآلهتنا خير بإثبات

همزة الاستفهام وبإسقاطها لدلالة أم العديلة عليها . وفي حرف ابن مسعود : خير أم هذا . ويجوز أن يكون جدلا حالا أي : جدلين . وقيل : لما نزلت " إن مثل عيسى عند ا " آل عمران : 59 ، قالوا : ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشرا كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر . ومعنى " يصدون " يضجون ويضجرون . والضمير في " أم هو " لمحمد A وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم : السخرية به والاستهزاء . ويجوز أن يقولوا لما أنكر عليهم قولهم : الملائكة بنات ا وعبدوهم ما قلنا بدعا من القول ولما فعلنا نكرا من الفعل فإن النصارى جعلوا المسيح ابن ا وعبدوه ونحن أشف منهم قولا وفعلا فإنا نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسي فقيل لهم : مذهب النصارى شرك با ومذهبكم شرك مثله وما تنصلكم مما أنتم عليه بما أوردتموه إلا قياس باطل بباطل وما عيسى " إلا عبد " كسائر العبيد " أنعمنا عليه " حيث جعلناه آية : بأن خلقناه من غير سبب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل .

" ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون "